ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة افاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد:06 العدد: 04(2021) ص 25-37

تيمة التَّمرُّد في شعر تأبَّط شرا

The theme of rebellion in the poetry of "T'abata Sharan"

ط.د نجاة طرهيوة *
جامعة امحمد بوقرة بومرداس،(الجزائر)
مخبر أطلس الثقافة الشعبية الجزائر2
n.terhioua@univ-boumerdes.dz

د. سعيد بهون علي
جامعة امحمد بوقرة بومرداس،(الجزائر)
مخبر أطلس الثقافة الشعبية الجزائر2
n.bouhoun-ali@univ-boumerdes.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
24 ماي 2021
تاريخ القبول:
31 جويلية 2021

الكلمات المفتاحية:
- ✓ تيمة التمرُّد
- ✓ الشعر
- ✓ تأبط شرا

الملخص:

يتناول هذا البحث إبراز تيمة التمرُّد في شعر تأبط شرا، هذا الموضوع الذي ارتبط بالشاعر نتيجة فعل قهري يُمارس ضده من السلطة التي تأخذ منه حريته بالقوة، وتهدف هذه الدراسة إلى رصد الموضوعات الأساسية في النص الشعري الصعلوكي، والوصول إلى المعاني والصور للكشف عن المضامين، وتجسيد ظاهرة الصعلكة والبحث والتمحيص. شعر تأبط شرا ملتزم بنمط معين ومتن معين، وهو شعر صادق ومعارض للقبيلة ومفاهيمها، وهو وجه آخر ينضاف إلى الشعر الجاهلي ويزيده إثراء.

Article info

Received
24 May 2021
Accepted
31 July 2021

Keywords:
- ✓ *Theme of Rebellion*
- ✓ *poetry*
- ✓ *T'abata Sharan*

Abstract :

The present study highlights the theme of rebellion in Taabata Sharan's poetry. A theme, associated with the poet as a result of the coercive practices against him by the authority, who stole his freedom. It aims to identify the main subjects embedded in the poetic text and to get access to the meanings and images so as to reveal the contents and to explicit the tramps phenomenon, through investigation and examination. Taabata Sharan's poetry is governed by a certain pattern and a certain text. It's a sincere poetry that opposes the tribe and its concepts; moreover, it is another aspect that is added to the pre-Islamic poetry and more enriching.

* المؤلف المرسل

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

1. مقدمة:

قامت حياة العرب في الجاهلية على أسس ومبادئ من عادات وتقاليد وعرف يخدم القبيلة على جميع الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، التي تقوي شعور الأبناء بالانتماء للقبيلة الواحدة من وحدة الدم فكان منها الأصلاء، والخلعاء، والموالي، والعبيد.

كان تأبّط شرا ذا عزيمة قوية يتمتع بالإرادة، والحماسة، وحب الحياة، وقد كان واحدًا من قادة التَّمرُّد الساعي للتغيير ورفض الظلم والعبودية، فما هي تيمة التَّمرُّد في شعر تأبّط شرا؟.

ويمكن أن يكون تمرُّد تأبط شرا ناتج عن قمع وظلم القبيلة له، فقد يكون تمرده على الباطل ورفع الضرر وبذلك يكون شعره ساعياً للتغيير والتجديد في الشعر الجاهلي. ويهدف هذا البحث إلى السَّعي إلى تجسيد ظاهرة الصَّعلكة وإضافة الجديد في الدِّراسات والبحث والتمحيص بشكل كاف، ويسعى إلى تبيين موضوع التَّمرُّد على الباطل، فتَمرُّد تأبّط شرا كان على قوانين القبيلة وليس القبيلة في حد ذاتها حين رفض الذّل والهوان، وفضَّل العيش في الصحراء، فتمرُّده كان تمرُّدًا على الواقع السّيء بكل مقاييسه، ، ولذلك خالف الشاعر منهجية القصيدة في عصره ، أي أنه تمرُّدٌ على التقاليد الشعرية السائدة في الشعر الجاهلي، وكان سائدًا الفقر والغنى ممّا أدَّى إلى وجود الطبقيّة بين الأفراد فنتج عنه تمرد اجتماعي، فقد وصف الشاعر مشاهد الصحراء والنبات والحيوان، ومطاردة الحيوانات المتوحشة، ووصف حياته وغزواته وهجومه على القوافل وسلب الغنائم، فهي حركة تمرُّد على النظام القبلي، وتكمن أهمية البحث في أنّه يُمكِّننا من التعرف على مجتمع الصَّعاليك الذي أحدث نقلة نوعية في العصر الجاهلي على جميع الأصعدة، وتبيين دور تأبّط شرا في تعزيز مفهوم الوجود عن نفسه وذاته المتمرِّدة التي تأبى وترفض الظلم، ويقوم المنهج المتبع على دراسة النصوص الشعرية بما يفيدها من المناهج كالمنهج النفسي والاجتماعي والتاريخي، والقراءات الموضوعية والنقدية.

2. الصّعاليك وخصائص شعرهم:

1.2 الصَّعلكة والصَّعاليك:

لغةً: جاء في لسان العرب : "الصعلوك الذي لا مال له" (ابن منظور، د.ت، صفحة 2454).

من صفات الشعراء الصعاليك التي ورت على لسان العرب الفقر، حيث عرف الصعلوك بالشخص الذي لا يملك من المال والزاد شيئا. وهو ما كان غير كاف لتوضيح ملامح شخصية الصعلوك، حيث رأى الباحثون أن هذه الصفات اجتمعت في أغلبية العرب وقتها، وربطوا الصعاليك بصفة التمرُّد والثورة على نظامهم القبلي الذي فطروا عليه ولكنه لم يحقق لهم التوازن الاجتماعي الذي طمحوا إليه، مما تسبب في سلكهم لدرب صراعي ومعارض بدل التعاون والتأقلم مع شرائع قبائلهم.

وكنفي نهائي لاعتبار الفقر والعوز المادي الصفة الغالبة على الصعاليك، عدم حاجة عروة بن الورد للمال حيث أنه لم يكن بحاجة له في المطلق. وهو ما يؤكد أن الصعلكة لم تكن إلا ردة فعل متجرد من الأسباب المادية المتمثلة في العوز، إنما نهجاً قائماً على التمرد والنفور من فكر قبائلهم وشعائرها.

وقال القاموس المحيط: "صعلكه أفقره" ...، والصعلوك الفقير، وتصعلكت الإبل طرحت أوبارها (حنفي، 1987، صفحة 17). وعلى الرغم من فهم المجتمع وعلماء اللغة القدامى لطبيعة الصّعاليك وسلوكهم فقد كان تعريفهم للصّعلكة متذبذبًا فيه قصورًا فهناك جوانب اتفقوا فيها واختلفوا في أخرى، يمكن أن نلخصها فيما يلي:

الصّعاليك هم الذؤبان واللصوص، وهم الخلعاء، ونستطيع إلحاق لفظة خليع للّذي خلعه قومه بالألفاظ السابقة التي تعتبر نصًا في الصّعلكة، وتوجد ألفاظ أخرى وُصف بها الصّعاليك مثل فاتك، وشيطان، وشاطر ولا يمكن اعتماد هذه الألفاظ للصّعاليك فقط، فقد وُصف بها غيرهم وتعريف الصّعلكة بأنها الغزو والإغارة للسلب والنهب هو تعريف غير جامع لأنّه لا يشمل اللّصوصية (حنفي، 1987، الصفحات 33-36). ومن ذلك نرى أنّ تعريف الصّعلكة بقولنا هي: "احتراف السلوك العدواني بقصد المغنم شامل لجوانب

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الصّعلكة، ومانع غيرها من مشاركتها في التعريف" (حنفي، 1987، صفحة 39)، وقد ظهرت الصّعلكة بسبب عدّة عوامل منها ما هو اجتماعي كالقبيلة ومنها ما يرجع لعوامل اقتصادية مثل الأسواق والتجارة ومنها ما يرجع للعامل الجغرافي كموقع الجزيرة العربية (خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.ت، الصفحات 88-138). والصّعلوك هو الفقير الذي لا يملك المال، ولم تقف اللفظة عند دلالتها اللغوية الخاصة في العصر الجاهلي، فأخذت تدل على أصحاب الغارات وقطّاع الطرق، ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات:

- فئة الخلعاء الشذاذ وهم الذين خلعتهم قبائلهم بسبب أعمالهم التي لا تتوافق مع أعراف القبائل التي ينتمون إليها مثل: حاجز الأزدي، وقيس بن الحدادية.
- وفئة أبناء الحبشيات السود ممن نبذهم آبائهم ولم يلحقوهم بأنسابهم مثل: السليك بن السليكة، وتأبّط شرا، والشنفرى.
- وفئة احترفت الصّعلكة احترافا وحولتها إلى ما يفوق الفروسية من خلال الأعمال الإيجابية التي كانوا يقومون بها مثل: عرة بن الورد.

أطلق لقب الصعاليك على جماعات من العرب القداماء، الذين نشئوا في العصور الجاهلية قبل ظهور الإسلام، وقد ذاع صيتهم في الجزيرة العربية بأكملها. وهم من قبائل عربية متفرقة، تمردوا وخرجوا عن سلطة قبائلها ونكروا العادات والتقاليد التي نشأوا عليها واختاروا العيش والتفرد بنمط حياة وأفكار معارضة لمبادئ وقوانين وسلطة قبائلهم حتى طردوا منها للعراء.

إتجه أغلبية الصعاليك في العصر الجاهلي إلى كتابة الشعر، وتفردوا بأسلوب خاص من الشعر العربي اشتهروا به عن غيرهم من الشعراء حينها. ومن أبرز الشخصيات التي تميزت وقتها ولازال سيطها مدويا إلى يومنا هذا الشنفرى، عروة بن الورد، تأبط شرا والسليك بن السليكة.

وتردد في أشعارهم صيحات الفقر والجوع، وتموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء، وكانت أكثر المناطق التي يغيرون عليها مناطق الخصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة (ضيف، 1960، الصفحات 375-376).

لم يكن الشعراء الصعاليك معارضين لشعائر قبائلهم وعاداتها وتقاليدها، معارضة مادية وفكرية، بقدر ما كانت معارضة فنية. وقد تميزت هذه المعارضة بخلق أسلوب شعري فريد عكس أثر العوامل البيئية التي عايشوها بشكل إبداعي تنوع من حيث الموضوعات وبنيته الفكرية.

2.2 شعر الصّعاليك مميزاته وخصائصه:

شعر الصّعاليك مصطلح يصف ظاهرة فكرية اجتماعية أدبية لطائفة من شعراء العصر الجاهلي، ويمثل من ناحية الفنية خروجًا عن نمطية القصيدة العربية والتخلص من المقدمات الطللية، فشعرهم عبارة عن مقطوعات قصيرة وليست قصائد كاملة ويتميز بالقصصية والواقعية، كما استغنوا عن الغزل الحسي وعن وصف الناقة، فقد كان شعر الصّعاليك يصور حياتهم وما فيها من إغارة وثورة على الأغنياء والسرقة والنهب، فإنه اهتم بفئة معينة يرصد واقعها ومشاكلها بسبب ما انتابهم من ظلم (خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.ت، الصفحات 259-282). وشعر الصّعاليك رأينا أنّ هذا الشعر يوزع بين مصادر الثقافة العربية المختلفة، وأنّ من يريد أن يجمع ديوان الصّعاليك عليه أن يتعب بين كل المصادر (خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.ت، الصفحات 341-342). ومن مصادر شعر الصّعاليك قبائلهم، والقبائل التي استجارة بها الخلعاء منهم، والصّعاليك أنفسهم، ومادة هذا الشعر قليلة يتخلّلها الاضطراب في روايتها، والشك حول بعض نصوصها (خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.ت، صفحة 157)، أمّا موضوعاته تصب في دائرتين شعر داخل دائرة الصّعلكة والذي تناول أحاديث المغامرات، وشعر المراقب، والتوعد والتهديد، ووصف الأسلحة، والحديث عن الرفاق، والفرار، وسرعة العدو، والآراء الاجتماعية والاقتصادية، وأحاديث التشرد، وشعر خارج دائرة الصّعلكة والذي تكلّم عن آثار القبيلة في شعرهم والمجموعة الإسلامية (خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.ت، الصفحات 182-258).

ومن خصائص شعر الصَّعاليك تعبيره عن حالتهم، توجهاتهم ونقمهم على البشر، وذلك بأسلوب ونمط إيقاعي جميل ومؤثر.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

واستعمال الخيال، حيث اهتموا بالخيال في شعرهم واستمدوه من تجاربهم الحسية التي مروا بها بالفعل خلال حياتهم.مما جعل شعرهم يؤثر في النفوس ويمتع السامعين ويقنعهم بما جاء فيه. وتميز أسلوب شعرهم كذلك، بالتركيز على التحليل والتركيب، وهو ما خلق شكلا من أشكال الإبداع الفني الذي انفرد به الشعراء الصعاليك.

3. مقاربة المفاهيم والمصطلحات

1.3 مفهوم التيمة:

يعود الجذر الأصلي لكلمة التيمة إلى اللغة اللاّتينية، فهي كلمة من اللفظ اللاّتيني (تيما) ويعني الشيء الذي نضعه، أمَّا الكلمة نفسها تعني الفكرة الأساسية أو التكوين الرَّئيس للجملة أو النص، ويمكن أن تشير إلى مجموعة كلمات تنتمي إلى حقل واحد لإعطاء دلالة معينة (محمود، 2020)، دون غيرها من المعاني الأخرى، "ويشتق مصطلح "الموضوعاتي" ((Thématique في الحقل المعجمي الفرنسي من كلمة ((Thème، وهي "التيمة". وترد هذه الكلمة بعدة معان مترادفة كالموضوع والغرض،والمحور، والفكرة الأساسية، والعنوان، والحافز، والبؤرة، والمركز، والنواة الدلالية...الخ" (حمداوي جميل، 2011) ، أي أن لكلمة التيمة عدة مرادفات، فقد ترجمت كلمة ((Thème بما لا يقل عن 15 مقابلاً: "تيم، ثيمة، تيمة موضوع، موضوعة، غرض، مضمون، معنى رئيسي، جذر، محور، ساق، ترجمة، قضية فكرة، خيط..." (وغليسي، 2007، الصفحات 154-155). ويعد تعدد ترجمت الكلمة أمر طبيعي لاختلاف الثقافات، كما ترجمت كلمة ((Thématique بما لا يقل عن 13 مقابلاً: "التيماتية الثيمية، التيماتيكية، الغرضية، الأغراضية، الجذرية، المضمونية، المنهج الداري الموضوعية، المنهج الموضوعي، الموضوعاتية، المواضيعية، نظرية الموضوعات..." (وغليسي، 2007، صفحة 155). ويبقى الترجمة الأقرب للمصطلح هي الأكثر طلباً لأنها الأصح.

2.3 مفهوم التَّمرُّد:

1.2.3 لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور: يقال لبرج الحمام التمراد، وجمعه التَّماريد وهي كما قيل محاضين الحمام في الأبراج، وهي بيوت صغيرة يُبْنَى بعضها فوق بعض والمارد هو العاتي، ومَرَدُه الشيء يَمْرُدُ مُرُودًا ومَرَادَةً فهو مارد ومَريدٌ، وتَمَرَّدَ أقبل وعَتَى، وتأويل المُرود: أن يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصنف، وقال ابن الأعرابي: المَرَدُ التطاول بالكِبَرِ والمعاصي، ويقال تمرَّدَ علينا، أي عتى وطغى.

وجاء في معجم أساس البلاغة للزمخشري، مادة (م ر د)، هو مارِدٌ من المرَّاد، ومُتَمرِّدٌ وشيطان مَرِيدٌ ومِرِدٌ، وقد مَرَد يَمْرُد مُرُدا، مَرُد مَرَادَةً، وتمرَّد عليَّ... وبنى تماريدَ للحمام وتِمْرَادًا، وَمَرَّتُ لها تَمْريدًا، وفي قوله تعالى في سورة التوبة { مرَدوا على النفاق } (القرآن الكريم، الآية 101، صفحة 203)

أي مَرَنوا عليه (أبي القاسم جاب الله، 1998، صفحة 203). والتمرُّد مصدر تمرَّد.

التَّمرُّد هو الخروج عن المألوف والمعتاد والثورة عنه، وظاهرة التَّمرُّد في الشعر العربي ليست جديدة بل هي موجودة منذ العصور القديمة، وقد برز ما يوضح ظاهرة التَّمرُّد في العصر الجاهلي، وهي ظاهرة الصَّعلكة، وعلى الرغم من فهم المجتمع وعلماء اللغة القدامى لطبيعة الصَّعاليك وسلوكهم فقد كان تعريفهم للصَّعلكة متذبذبًا فيه قصورًا فهناك جوانب اتفقوا فيها واختلفوا في أخرى، ويمكن أن نلخصها فيما يلي:

الصَّعاليك هم الذؤبان واللصوص، وهم الخلعاء، ونستطيع إلحاق لفظة خليع للَّذي خلعه قومه بالألفاظ السابقة التي تعتبر نصًا في الصَّعلكة، وتوجد ألفاظ أخرى وُصِف بها الصَّعاليك مثل فاتك، وشيطان، وشاطر ولا يمكن اعتماد هذه الألفاظ للصَّعاليك فقط، فقد وُصِف بها غيرهم وتعريف الصَّعلكة بأنّها الغزو والإغارة للسلب والنهب هو تعريف غير جامع لأنّه لا يشمل اللصوصية. (حنفي،

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

1987، صفحة 17) ومن ذلك نرى أنّ تعريف الصَّعلكة بقولنا هي: "احتراف السلوك العدواني بقصد المغنم شامل لجوانب الصَّعلكة، ومانع غيرها من مشاركتها في التعريف" (حنفي، 1987، صفحة 39). وبذلك كانت الصَّعلكة مصدر رزق لهم ولغيرهم من الفقراء.

والصَّعلكة ظاهرة اجتماعية متمرِّدة نتجت عن عدم قدرة الأفراد التعايش مع قبائلهم، ذات الأنظمة القاسية والقوانين الجائرة، ما اضطرهم للخروج عنها بحثًا عن الحرية، ومن هؤلاء الصَّعاليك الشنفرى، تأبَّط شرا، والسُّليك بن السُّليكة، وعروة بن الورد...الخ (ضيف، 1960، صفحة 375)فلم يعترفوا بانتمائهم لسلطة قبائلهم وواجباتها، حيث انشقوا عنها أو طردوا منها.

2.2.3 اصطلاحا: يختلف التمرد في معناه الاصطلاحي باختلاف الرُّؤى وزاوية النظر، فهو في منظور ألبير كامو في كتابه (الإنسان المتمرد) معرفًا إياه بسؤال ما الإنسان المتمرد؟ إنّه إنسان يقول: لا. ولئن رفض، فإنّه لا يتخلى. فهو أيضا إنسان يقول: نعم، منذ أول بادرة تصدر عنه.إنّ العبد الذي ألف تلقى الأوامر طيلة حياته يرى فجأة أنَّ الأمر الجديد الصادر إليه غير مقبول)ألبير كامو, 1983 , p. 18). فما فحوى هذه «اللا» ؟.

أظنُّها تعني مثلاً «أن الأمور استمرت أكثر مما يجب» و « أنها مقبولة حتى هذا الحد، ومرفوضة فيما بعده » و « أنك غاليت في تصرفك ». وخلاصة القول أن هذه «اللا » تؤكد وجود حد. إننا نجد نفس فكرة الحد في إحساس المتمرد بأنّ الإنسان الآخر «يبالغ»، وأنه يبسط حقه ويجاوز الحد الذي اعتبارا منه يجابهه ويحده حق آخر. فحركة التمرد تستند إذن، في نفس الوقت، إلى رفض قاطع لتعَدِّي لا يطاق، وإلى يقين مبهم بوجود حق صالح، وبصورة أصح، إلى اعتقاد المتمرد أنّ «له الحق في أنَّ... »، فلا بدّ للمتمرد من أن يكون مقترنًا بشعور المرء بأنّه على حق، بصورة ما، وفي مجال ما، وبهذا المعنى يقول العبد المتمرد «نعم»و « لا»في نفس الوقت. إنّه يؤكد وجود الحد، ويؤكد في الوقت نفسه كل ما يتصوره ويريد أن يصونه فيما وراء الحد. ويبين بعناد أنّ في ذاته شيئًا ما «يستحق أن ... »، شيئا ما يتطلب أن يؤخذ بعين الاعتبار. إنّه بصورة ما، يجابه الأمر الغاشم الصادر إليه بنوع من الحق في ألا يُضطهد إلى أبعد من الحق المقبول. وهكذا يبقى المتمرد في صراع مع الأخر ليثبت وجوده ويخالف غيره بكل أنواع وأساليب الرفض.

إنّ مفهوم التمرُّد عند ألبير كامو يعني الثورة والرفض للوضع السائد "فمن هو الثائر؟ الثائر هو الذي يقول، كلا، لكنه في الوقت نفسه يقول: نعم... فما معنى هذا الرَّفض؟ معناه مثلا أنّ الأمور طالت أكثر مما ينبغي... وأنَّ ثمة حدا يجب الوقوف عنده أو: إلى هنا وكفى، أما بعد هذا فلا" (عبد الرحمان، 1980، صفحة 2019).ومن الجانب الاجتماعي، فيرى علماء الاجتماع " أنَّ التمرُّد ظاهرة اجتماعية، يلّخصُها سوء التكيف مع قوانين المجتمع التي تُفرض على الفرد، وهو في نظر بعض النقاد، ضعف القدرة على التكيف الاجتماعي نتيجة التضارب والتصادم بين القيم، والهروب من سوء التكيف، والثورة على الفشل في التكيف مع معايير المجتمع الذي يعيش فيه.

4. من هو تأبّط شرًا؟

تأبّط شرا "من قبيلة فهم واسمه ثابت بن جابر بن سفيان ويعد من أغربة العرب، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء، فورث عنها سوادها، وقيل بل أمة حرة من فهم تسمى أميمة" (ضيف، 1960، صفحة 377) تميز بدهاء والحيلة. ويظهر أنّ أباه مات وهو صغير، فتزوجت أمه أبا كبيرالهذلي، وكان صعلوكًا كبيرًا، فخرَّجه على شاكلته، وربَّما كان لسواده وتعيير عشيرته له به وبأنَّه ابن أمة أثر في تصعلكه، وكان يرافقه الشنفرى في كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن برَّاق (ضيف، 1960، صفحة 377)، ترافق الثلاثة في العديد من الغزو والغارات على القبائل. "والمعروف عنه أنَّه عدَّاء وأنَّه لصٌّ من أدهى اللصوص وأشدُّهم فتكًا" (الفاخوري، 1986، صفحة 170)، هذا ما ساعده على الصَّعلكة.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وتأبّط شرا لقَبٌ لُقِّبَ به، ذكر الرواة أنّه كان رأى كبشًا في الصحراء، فاحتمله تحت إبطه، فجعل يبول عليه طُول طريقه، فلمّا قَرُب من الحيّ ثُقِلَ عليه الكبش، فلن يُقِلَّه فرمى به فإذا هو الغول، فقال له قومه: ما تأبطت يا ثابت؟ قال: الغول، قالوا: لقد تأبطت شرًّا فسميّ بذلك.

وقيل: بل قالت له أمه: كل إخوتك يأتيني بشيء إذا راح غيرك، فقال لها: سآتيك الليلة بشيء، ومضى فصاد أفاعيَ كثيرة من أكبر ما قدر عليه، فلما راح أتى بهن في جراب متأبّطًا له، فألقاه بين يديها، ففتحته، فتساعَيْن في بيتها، فوثبت، وخرجت، فقال لها نساء الحي، ماذا أتاك به ثابت؟ فقالت: أتاني بأفاعٍ في جراب، قُلْن، وكيف حملها؟ قالت تأبّطها ، قلن: لقد تأبط شرًا (علي بن الحسن، 1994، صفحة 86).

ولتأبط شراً شعر مبثوث في كتب الأدب، وهو في شعر رجل الإنفرادية الحازمة، والشخصية القوية، كما هو رجل الكرم والجود، تميز أدبه بخشونة في المعاني والمباني، وتصوير حسي صادق، ونفس مكسوّة بألفاظ، وألفاظ تتراءى فيها العادات والنفسيات، وسذاجة فطرية حلوة، وجو صحراوي. هو أدب اعترافي قصصي ملحمي ، وقد قتل تأبّط شرًّا في بلاد هذيل ورُميَ به في غار، وذلك في نحو 530 للميلاد .

5. تجليات التمرُّد في شعر تأبّط شرًا

مظاهر التمرُّد في مختلف العصور جديرة بأن تُرصد حتى نبعد عن شعرنا وشعرائنا تلك الصورة النمطية من أنَّ الشاعر ينجر وراء سلطة القبيلة يمجدها ويفاخر بها ويزين قبائحها، والمسار الذي اتَّبعه تأبّط شرا لنفسه مخالفا عن السائد والمألوف في نظام القبيلة، ويُلحقه في ركب الشعراء الصَّعاليك الذين لفتوا الانتباه إليهم شكلاً ومضموناً، وتأبّط شرا من أغربة العرب لأنَّه كان ذو لون أسود، الأمر الذي نقرأه متجلياً في شعره، وسنواحل التطرق لبعض تجليات التمرُّد في شعره.

1.5 التمرُّد الاجتماعي :

يفتقر التمرُّد لشرعية، سواء كان بغرض التمرُّد على العادات، أو القواعد الاجتماعية السائدة، وبالتالي فإنَّ التمرُّد عملية صعبة تتطلب قدرات استثنائية لمواجهة العديد من الضغوط في المجتمع، ولتوضيح معنى التمرُّد أكثر، هو: عدم الرضوخ للواقع والتهرب من الحقيقة، وعصيان الأوامر.

التمرُّد له تأثيراً خطيراً على البيئة الاجتماعية، فلهذا يحتاج إلى صبر طويل، وقوة مجتمعة، وإمكانيات، وكفاءات، وخبرات، وقدرات عالية، والرصيد الكبير من الثقافة والمعرفة.

حين ننظر إلى المجتمع الجاهلي في صورته العامة نرى أنَّه مجتمع قبلي، انقسم فيه العرب إلى وحدات اجتماعية متعددة، عرف كل منها باسم القبيلة، وقد نزلت كل وحدة من هذه الوحدات الاجتماعية في بقعة من الجزيرة العربية يتوافر فيها الماء والكلأ، واتخذت منها موطنًا لها، فإذا ما ساءت ظروفها الجغرافية، فأحالت موطنها إلى بقعة جرداء غير صالحة للحياة انتقلت منها إلى بقعة أخرى. أما إذا كان الموطن الأوَّل أرضًا ذا خصب دائم فإنَّ القبيلة تستقر فيها استقرارًا دائماً، وتنشىء فيه قرية (خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.ت، صفحة 89). يبقى الماء والكلأ هما الوجهة التي ينساق وراءها العرب وهي التي تحدد بقاءهم فيها من عدمه.

آمنت القبيلة بوحدتها واعتبرته أمرا مقدساً ترتب عليه طائفة من التقاليد الاجتماعية، آمنت بجنسها، وذلك لأنَّ من الأسس التي قامت عليها القبيلة العربية إيمان أبنائها «برابطة الدم»، أي أنَّهم جميعا من دم واحد (خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.ت، الصفحات 103-104). القبيلة وحدة واحدة لا تتجزأ تخضع إلى عادات وقوانين لا يمكن للفرد تجاوزها.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

"وقد نشأ عن هذا الإيمان «الإيمان بوحدة الجنس وامتيازه» طائفة من التقاليد تنظم العلاقات بين الطبقات الاجتماعية في القبيلة. والناظر في تكوين القبيلة الاجتماعية يستطيع أن يميز ثلاث طبقات اجتماعية: الصّرحاء، والعبيد، والموالي" (خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.ت، صفحة 105). وكان لهذه التقسيمات للمجتمع الجاهلي أثر كبير على طبقاته من الأفراد.

الصَّعلكة عبارة عن ظاهرة اجتماعية برزت على هامش الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي كردت فعل على بعض الممارسات الاجتماعية، فهي عبارة عن ثورة ضدَّ الأغنياء الذين كانوا يهاجمونهم في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية. ما يمكن التكلم عنه في هذا الجانب هو أخبار الصَّعاليك، فهي حافلة بالحديث عن فقرهم، فكل الصَّعاليك فقراء، وهذا الفقر حمل لهم الجوع الذي هو أوَّل الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان، فكثير من الصراعات الداخلية بين القبائل الجاهلية ترجع إلى الفقر والجوع.

يظهر أنَّ هؤلاء الصَّعاليك المتمردين كانوا يجاهرون بعدائهم للقبائل؛ فقد أظهروا بأسهم من تلك الحياة القبلية، وما تميزت به من عادات فأعلنوا نفورهم منها ورفضهم لها، والثورة على القيم الاجتماعية، وعدم انسجامهم مع القبيلة، وخلق نظام جديد بعيد عن النظام القبلي، كان تأبَّط شرا من أبرز وأهم الشعراء الصَّعاليك الذين تمرَّدوا عن قوانين السلطة.

كانت للحياة الاجتماعية بعاداتها، وتقاليدها، وأعرافها الاجتماعية في العصر الجاهلي أثر كبير في شعر تأبَّط شرا، تجلىَّ في الكثير من موضوعات شعره ويظهر ذلك جليًا في سخطه على المجتمع وافتخاره عن طريق تبرُّمه من العيوب الاجتماعية السائدة في عصره، وها هو يشكو من ضعف علاقته بأهله وأصدقائه وقبيلته، وهو لا يتأسَّف لهذه الصحبة التي لا تستحق أن يقف عندها أو يبكي عليها، وهو عنده استعداد للتخلص من هذه الصحبة كما تخلص من قبيلة بجيلة في تلك الليلة التي أرادت قتله فيها، فبذل كل مجهوده في الهرب والنجاة ليخلص نفسه من موت محقق يقول (تأبط شرا، 1984، صفحة 129):

إِنِّي، إِذَا خُلَّةٌ ضَنَّت بِنَائِلِهَا وَأَمْسَكَتْ بِضَعِيفِ الحَبْلِ أَحْذَاقِ

ويقول أيضا (تأبط شرا، 1984، صفحة 129):

نَجَوْتُ مِنْهَا نَجَائِي مِنْ بَجِيلَةَ أَلْقَيْتُ لَيْلَةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أَرْوَاقِي

ويستطرد (تأبط شرا، 1984، صفحة 134):

وَلاَ أَقُولُ إِذَا مَا خُلَّةٌ صَرَمَتْ يَا وَيْحَ نَفْسِي مِنْ شَوْقٍ وَإِشْفَاقِ

ويقول (تأبط شرا، 1984، صفحة 35):

لَكِنَّمَا عِوَلِي إِنْ كُنْتُ ذَا عِوَلٍ عَلَى بَصِيرٍ بِكَسْبِ الْحَمْدِ سَيَّاقِ

فالشاعر تأبَّط شرا نجد في شعره إحساس بالظلم وعدم الرضا الذي يؤرق مضجعه، كما يتبرَّم الشاعر من ظلم ذوي القربى ممن خلعه وطرده واضطهده، ويشكو تشرده وتنقله بين القبائل. ولكنّه مع ارتكاب جرائره التي لم تتحملها قبيلته فنبذته، يودُّ أنَّه لو مكث في مجتمعه ووجد فيه الحماية والنصرة، ولذلك يصبُّ غضبه على أهله وقبيلته.

لذلك ابتعد الشاعر على ذكر القبيلة في شعره، وأظهر غضبه على مجتمعه، وقد ظهر في شعره ابتعاده عن ذكر قبيلته ومجتمعه وإن ذكرها توعَّدها بالغزو والإغارة، والشاعر مجَّد مواقفه الخاصَّة والنبيلة، يقول (تأبط شرا، 1984، صفحة 142):

إِنِّي زَعِيمٌ لَئِنْ لَمْ تَتْرُكوا عَذَلِي أَنْ يَسْئَلَ الحَيُّ عَنِّي أَهْلَ آفَاقِ

كان الشعراء الجاهليون هم لسان قبائلهم ومجتمعاتهم، يمدحون سادتها، ويدِّدُون مآثرها، ويفتخرون بأمجادها وانتصاراتها وسجياها، إلاَّ أنَّ الشعراء الصَّعاليك تخلصُوا من هذا الانتماء القبلي (الجماعي) الذي يغطِّي على الفرد، وهذا شيء لا غرابة فيه، إذا نظرنا إلى أسباب تمرُّدهم من خلع وطرد واضطهاد وفقر وتذمُّر من ضيق العيش مع الجماعة واستحالة استمرارهم مع قبائلهم، ولذلك لم يكن غريبًا أن يبتعدوا عن ذكر القبيلة في شعرهم، وأن يظهروا غضبهم على مجتمعاتهم فاستعاضوا بالذات عن الجاعة أي اقتربوا من الذاتية والفردية

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وابتعدوا عن الجماعة، وها هو تأبّط شرا يهدّدُ قومه. وشعر الصّعاليك يخلو من المدح باستثناء قصيدة لتأبّط شرا يمدح فيها ابن عمه (شمس بن مالك)، يبدأ مدحه له بذكر تشرّده وانقطاعه عن المجتمع، ويصفه بالصبر، والتنقل بين المخاطر والمهالك، وسرعة العدو، والحذر واليقظة، والجرأة والإقدام ،يقول فيها (تأبط شرا، 1984، الصفحات 148-150):

إِنِّي لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِي فَقَاصِدٌ ... بِهِ لابنِ عَمّ الصِّدْقِ شَمْسِ بنِ مَالِكِ

أَهُزُّ بِهِ فِي نَدْوَةِ الحَيِّ عِطْفَهُ ... كَمـا هزَّ عِطْفِي بالهِجَـانِ الأوَارِكِ

ويقول أيضا (تأبط شرا، 1984، الصفحات 151-154):

قَـلِيـلُ التَّشَـكِّي لِلْمُهِمِّ يُصِيبُـهُ، ... كَثِيرُ الهَوى، شَتَّى النَّوَى والمَسَالِكِ

يَظَـلُّ بِمَوْمَـاةٍ، ويُمْسِـي بغَـيْرِهَـا ... جَحِيشًا، وَيَعْرَوْرِي ظُهُورَ المَهَـالِكِ

وَيَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي ... بِمُـخْـرَقٍ مِـنْ شَـدِّهِ المُتَـدَارِكِ

إِذَا خَاطَ عَيْنَيْهِ كَرَى النَّومِ لَمْ يَـزَلْ ... لَهُ كَالِئٌ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَـاتِكِ

إِذَا طَلَعَتْ أُلَى العَـدِيِّ فَـنَـفْـرُهُ ... إِلى سَلَّةٍ مِنْ صَارِمِ الغَرْبِ بَـاتِكِ

وقد تحدَّث الشعراء الصّعاليك عن صراعهم مع الفقر ومواجهتهم له، فقد بلغ الفقر بتأبّط شرا أنَّه بات لا يملك من الزاد شيئًا، فهوَّ لا يملك إلاَّ نعله التي تحول بينه وبين الموت حتى هزل ونحل وباتت أضلاعه من الضعف الشديد والتصقت أمعاؤه ببعضها من شدة الجوع حيث يقول (تأبط شرا، 1984، صفحة 115):

قَـلِيـلِ اِدِّخارِ الـزادِ إِلاَّ تَعِـلَّةً ... وَقَد نَشَزَ الشُرسوفُ وَالتَصَقَ المِعى

فالتصادم المباشر مع المجتمع القبلي يحتاج إلى الإرادة القوية، والإمكانيات الذاتية التي لا يملكها معظم الناس، وخصوصاً أن البعض سيطر عليه الشعور بالنفور من البيئة الاجتماعية، وهناك العديد من الناس يوصفُ المواجهة لهذه الفئات المتمردة، بأنَّها انتحار أو مغامرة بلا نتائج، ولكن في حقيقة الأمر يجب الوقوف أمام هذه الفئات المتمرِّدة بمختلف الأساليب والوسائل المتعددة، وذلك من أجل رعايتها، وإعادة التوازن في البيئة الاجتماعية مجدداً.

التمرُّد الاجتماعي لا يمثل نهاية التاريخ البشري، فهو حركة مألوفة في مختلف المجتمعات البشرية، فإن العديد من الشرائح الاجتماعية لا تتبع العادات، والقواعد الاجتماعية السائدة، فلهذا تميل إلى التمرُّد باستمرار.

وإن القضاء على التمرُّد ليس مضموناً دائماً، فإن هناك الكثير من الفئات المتمرِّدة تمكنت من الصُّمود، ويبقى التمرُّد تصرُّف منبوذًا لدى العديد من المجتمعات.

2.5 التمرُّد السياسي:

الظاهرة المهمة التي تلفت النظر في حياة صعاليك العرب الاجتماعية هي فقد الإحساس بالعصبية القبلية التي كانت قوام المجتمع الجاهلي، وتطورها في نفوسهم إلى «عصبية مذهبية». وهي ظاهرة من السهل تعليلها بعد ما فهمنا الظروف الاجتماعية التي وجد فيها هؤلاء الصعاليك، فأما الخلعاء والشذاذ فقد تخلت قبائلهم عنهم، وسحبت منهم « الجنسية القبلية »، فكان من الطبيعي أن يفقدوا إيمانهم بكل معاني القبيلة، وأن يكفروا بتلك العصبية القبلية التي لم يعد لها قيمة في حياتهم، بل قد ينقلبون انقلابًا تامًا فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة عداوة، فيوجهون غزواتهم إليها. وأما الأغربة فقد أدركوا أن قبائلهم لا تكاد تعترف بهم، بل تكاد تنكر صلتها بهم، فلم يكن همهم إذن ما يوجب حرصهم على تلك العصبية القبلية لأنها مرفوضة من جانب القبيلة.

نشأ عن كفر صعاليك العرب بالعصبية القبلية، وإيمانهم بعصبية مذهبية قوامها «الغزو والإغارة للسلب والنهب» أنهم كثيرًا ما كانوا يقومون في المجتمع الجاهلي بدور يشبه دور «الجنود المرتزقة » عند الأمم الأخرى، فما دام هؤلاء الصعاليك لا يعرفون العيش إلا في ظلال

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

سيوفهم، وما داموا لا ينتظرون في حياتهم أى سلام أو أمن، فقد كانوا يقاتلون أحيانًا كما يقاتل الأبطال الشجعان، ومن هنا كان الأشراف الذي يرغبون في أن يوجهوا إلى خصومهم ضربة قاصمة يلجئون إلى بسالتهم مفضلين إياهم على رجال قبائلهم.

خلاصة القول إن إيمان القبيلة بوحدتها أوجد في المجتمع الجاهلي طائفة الخلعاء والشذاذ، وأن إيمانها بجنسها أوجد فيه طائفة الأغربة، وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شتّى القبائل قد اجتمعوا في عصابات من صعاليك العرب، كافرين بالعصبية القبلية، مؤمنين بعصبية مذهبية قوامها «الغزو والإغارة للسلب والنهب»، معتمدين على قوتهم في سبيل العيش، شأنهم في ذلك شأن المجتمع الذي يعشون فيه، وإن يكن عملهم فردياً فلم (خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.ت، الصفحات 116-121)يعترف به، إذن تصرفات القبيلة والعنصرية أوجد طائفة متمردة على أعرافها ولا تؤمن بها.

ومن أسباب الصعلكة عدم وجود دولة جامعة أي عدم وجود قوة حيوية متحركة تسيطر على الأمة، ويحس أفراد شعب هذه الأمة، بأنهم مرتبطون بهذه القوة وخاضعون لها خضوعا يؤثر في سلوكه (حنفي، 1987، صفحة 42)، فالقانون إذا فقد صفة الالزام، وضعف سلطانه على النفوس، بحيث لا يشعر الافراد بأنهم ملزمون بتنفيذه، فإنه يفقد كيانه الحقيقي كقانون، ويصبح مجرد اسم وهيكل لا حياة فيه ولا تأثير له، وكذلك الشأن بالنسبة للدين والدولة وغيرهما. فهذه القوة المؤثرة الجامعة هي التي نعني فقدانها في العرب قبل الإسلام، فلم تكن لهم دولة جامعة، ولا قانون ودين جامع (حنفي، 1987، صفحة 42). "وأما في الجاهلية فلم تكن هناك سلطة رسمية فوق الصعاليك، فلم تكن هناك إلا سلطة المجتمع بعاداته وتقاليده، وحتى هذه السلطة رفضها الصعاليك، لأنهم لا يؤمنون بأي سلطان من أي نوع " (حنفي، 1987، الصفحات 45-46)، فقد جسدت فئة الصعاليك تمردهم على السلطة بكل معانيه، فتأبّط شرا يأبى أن يخضع لأعراف المجتمع وتقاليده، ويصر على أن يفرض نفسه وسلوكه على المجتمع، فإذا لم يقبل الناس منه ذلك فإن في الأرض متسعا له لا يعبر عنه بالأماكن، وإنما بالآفاق يقول (تأبط شرا، 1984، صفحة 142):

إِنِّي زَعِيـمٌ لَئِنْ لَمْ تَتْرُكُـوا عَذَلِي أَنْ يَسْئَلَ الحَيُّ عَنِّي أَهْلَ آفَاقِ

أَنْ يَسْئَلَ القومُ عَنِّي أَهْلَ مَعْرِفَةٍ فلا يُخَبِّرُهُمْ عَـن ثَابِـتٍ لاَقِ

هكذا نجد نزعة التحرر من السلطة والنفور منها شائعة في شعر الصعاليك، وهكذا بعدم وجود دولة حتمًا لا يوجد قانون لأنّه لا توجد سلطة تنفذه وتحميه (حنفي، 1987، صفحة 46)، فقد كانت هناك أعراف وتقاليد اقتضتها ظروف المجتمع وطبيعته، ولكن هذه الأعراف لم تأخذ صفة الالزام بحيث يتقيد الأفراد بالتزامها، ولعدم وجود سلطة تقوم على تنفيذها.

كان الصعاليك أقدر أفراد المجتمع على انتهاك هذه الأعراف والتنكر لها، لأنَّهم يملكون

أمرين مهمين في هذا المجال، أحدهما القوة المتحررة من كل قيد وسلطان، والآخر أنهم أكثر أفراد المجتمع وطوائفه تحللا من روابطه، بل لا يربطهم بالمجتمع إلا ما يرون فيه منفعة لهم، لذلك لم يكن المجتمع بما فيه من تقاليد وأعراف حجرا على حريتهم وسلوكهم (حنفي، 1987، صفحة 50)، وأدَّى عدم وجود سلطة، ظهور زعمات غير متزنة في المجتمع الجاهلي، كانت هذه الزعمات تتمثل في رؤساء القبائل والعشائر، وهؤلاء الرؤساء لم يكن هناك قانون ينظم وصولهم إلى الرياسة، وإنما كانت هناك صفات تعارفوا على أن يسيدوا من أجلهامن يتحلى بها.

ومن هذا الاختلاف والاضطراب في تحديد مقومات الرياسة والسيادة، وفي انطباق هذه المقومات على الذين تسند إليهم السيادة والرياسة نقول إنَّه من الواضح أنه لم يكن للزعامة كما قلنا قانون ولو عرفي ينظم الوصول إليها، وبالتالي لا يوجد قانون، ولم تكن لهؤلاء الرؤساء ضوابط تقوم عليها رئاساتهم اندفع بعضهم في بغى لا يتقبله المجتمع، وظلم تأباه طبيعة مجتمع لم يألف الظلم قط، بل ولا مجرد الخضوع ولكن هذا البعض استطاع أن يستغل بعض الظروف في شخصيته أو عصبيته، فيطغى ويبغى. على أنه من مظاهر ظلم بعض هؤلاء السادة احتكارهم موارد الرزق المحدودة في البيئة، وتضييقهم بذلك على الناس بما فيهم أقوامهم، وبذلك يكون هؤلاء السادة قد ساهموا مع

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الظروف في قسوتها على مجتمع محدود الموارد، ومن الطبيعي أن يكون هذا السلوك من جانب بعض الرؤساء عاملا من عوامل تمرد بعض الأفراد، وإذا كان في المجتمع من يأبى الظلم ويتمرد عليه، ويرفض البغي ويتصدى له (حنفي، 1987، الصفحات 53-54)، حاول الصَّعاليك خلق نظام اجتماعي جديد عوضاً عن النظام القبلي، لكن لم يتحقق لهم الأمن والاستقرار الذي طمحوا له رغم بعدهم عن نظام القبيلة وسلطانها.

3.5 التمرُّد الاقتصادي:

وتمثل في عدم التوازن بين الفقر والغنى، فقد تردَّد في شعر الصعاليك صيحات الجوع والفقر، وهناك عدَّة عوامل أدَّت إلى وجود الفقر ، والإحساس به تمثلت في ضعف موارد البيئة جعلت ميزان التعادل بين الأفراد والجماعات حساسا من الناحية المادية فإذا أثرى فرد كان ثراءه على حساب الآخرين، وإذا غنيت جماعة كان غناها يمثل هبوطا أو فقرا في حياة جماعة أخرى من الناحية المعيشية والمادية، ومن الطبيعي أن لا يكون هناك توازن بين الأفراد والجماعات في بيئة تتطلب السيف وشدة البأس للحصول على الثروة، وهذا الثراء المجاور للفقر أدَّى إلى تمرد الصعاليك، وكما يقول تأبَّط شرا (حبيب بن أوس الطائي، 1998، صفحة 17):

إذا المرءُ لم يَخْتَلْ وقد جِـدّ جِـدُّهُ أضـــاعَ وَقاسَى أَمْرَهُ وهْوَ مُدْبِرُ

ولكنْ أخُو الحزمِ الذي ليسَ نازِلاً بِهِ الخطبُ إلاّ وهْوَ لِلْقَصْدِ مُبْصِرُ

والعامل الثاني يرجع إلى نواحي البيئة نفسها غير متفقة في خصبها وجودها بالخير، وهنا يثور الإحساس بالفقر عند بعض الفقراء، حين يجدون جيرتهم وأقرباءهم يتمتعون بما يتمتعون به، في الوقت الذي يعانون فيه هم ما يعانون، وهنا يثور في نفوسهم التطلع للغنى والحصول على المال حين يجيدونه قريب المنال.وكما يقول تأبَّط شرا عن الرفاق (تأبط شرا، 1984، صفحة 136)

سَبَّاقِ غاياتِ مَجدٍ في عَشِيرَته مُرَجِّعِ الصَّوتِ هَدَّا بينَ أَرْفَاقِ

وننهي في هذا الحديث وإن كان الفقر من أسباب البارزة للتمرد إلاَّ أنَّه ليس السبب الوحيد وإنَّما الأهم هو احتكاكه بالغنى، غنى أصحاب الإبل في البادية، وأصحاب التجارة في المدن على حساب الطبقة المحرومة والفقيرة.

يصف لنا تأبَّط شرا تمزُّق نعله ويقول أنَّ الجبال التي يتسلق صخورها، هذه الصخور في حاجة إلى نعل متينة تقي رجليه من خشونة الصحراء ولكنَّه لا يملك إلاَّ نعلا ممزقة، يقول (تأبط شرا، 1984، الصفحات 139-140):

لاشيءَ في رَيْدِها إلاَّ نَعَامتُهَا حتَّى نَمْـيتُ إليهـــا بَعدَ إشْـراقِ

بِشَرْثَةٍ خَلَقٍ يُوقَى البَنَانُ بها شددتُ فيها سَــرِيحاً بعدَ إطْرَاقِ

ويسير تأبَّط شرا يشكو الأهوال ووعر الطريق (تأبط شرا، 1984، الصفحات 135-136):

يا عِيدُ مالَكَ مـن شَـوْقٍ وإيراقِ ومرّ طَيْفٍ علَى الأَهـوالِ طَـرّاقِ

يَسْرِي علَى الأَيْنِ والحيَّاتِ مُحْتَفِياً نفسي فِداؤُكَ مِن سارٍ علىَ ساق

ولعلى أبرز صفات الشعراء الصعاليك، هو محاربتهم للأغنياء الأشحاء ومظاهر الرفاهية التي كانوا يتمتعون بها ويحرم غيرهم منها.

وقد تميزوا بالشجاعة والصبر عند الشدائد وسرعة العدو، حتى أنه كان يضرب بهم المثل وسموا بالعدائين، فقيل أعدى من السليك، وأعدى من الشنفرى.

وقد حكيت عنهم العديد من القصص فيما يخص ذلك، حيث جاء عن الشاعر تأبط شرا أنه سريع العدو كمن له رجلين وساقين وعينين. وقد أحسنوا امتطاء الخيول والإغارة بها. وقد كرهوا الظلم القائم على القهر المادي وقلة المال

4.5 التمرُّد الأدبي:

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

شعر الصَّعاليك هو شعر مقطوعات، ولسنا نعني بهذا انعدام القصيدة فيه، وإنَّما نعني ذيوع المقطوعة أكثر من ذيوع القصيدة ومن هنا كان تمرُّد الشعراء على نمط القصيدة القديم الذي كان على شكل قصائد طوال، والملفت للانتباه أنَّ هذه المقطوعات تتميز بالوحدة الموضوعية، بحيث نستطيع وضع لكل مقطوعة عنوانا خاصاً بها، دالا على موضوعها. وهي ظاهرة لم يعرفها الشعر الجاهلي من قبل، تلك القصائد التي تبدأ عادة بمقدمة طللية، ثم تنتقل من موضوع إلى موضوع حتى تصل إلى نهايتها. فلا نكاد نجد صعوبة في وضع العناوين المختلفة لمقطوعات شعر الصعاليك، المعبرة عنها، الدالة على موضوعاتها، فمثلا بائية الشنفرى « غارة على الغوص »، ورائية تأبَّط شرا « احتيال»، وكافيته «الصديق الصعلوك»، وعلى كل حال فإنَّ ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلي في صورته الشكلية، ظاهرة قليلة الذيوع في مطولات شعر الصَّعاليك، ومنعدمة تماماً في مقطوعاته، فقد تميز شعر تأبَّط شرا بالوحدة الموضوعية باعتباره أحد أهم الصَّعاليك.

تميز شعر تأبَّط شرا بظاهرة « التخلص من المقدمات الطللية » وهذا طبيعي ما دام الشاعر يحرص على الوحدة الموضوعية في شعره، إذ أنَّ المقدمات الطللية تخل بهذه الوحدة الموضوعية واستبدلها بالمقدمات الفروسية. يظهر في شعر الصَّعاليك التحلل من الشخصية القبلية، ومن الطبيعي أن لا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصبية القبلية، وما دام الشاعر انقطع عن قبيلته اجتماعياً فمن الطبيعي أن ينقطع عنها فنياً فلا يكون الشاعر لسان قبيلته ومجتمعه، وإنَّما يصبح شعره صورة صادقة عن حياته، وشعر تأبَّط شرا شعر قصصي وواقعي يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور حوله واتخاذه الحياة بكل ما فيها من خير وشر مادة لموضوعاته (خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.ت، الصفحات 259-282) ، وتخلص الشعراء الصَّعاليك من هذا الانتماء القبلي الذي يغطي على الفرد، وابتعدوا عن ذكر قبائلهم في شعرهم، وأظهروا غضبهم على مجتمعهم.

طرق الشعراء الصعاليك كغيرهم من الشعراء الجاهليين الموضوعات التقليدية الموروثة، كما جعلوا بعض الموضوعات الشعرية تطغى على موضوعات أخرى، واستحدثوا موضوعات جديدة في عصرهم، نظرا لطبيعة أفكارهم، ونهجهم الذي خالفوا به منهجية القصيدة في عصرهم، ويأتي في صدارة الموضوعات الشعرية، موضوع الوصف، يقول تأبَّط شرا يصف أحواله (تأبط شرا، 1984، الصفحات 140-141):

يَا مَنْ لِعَـدَّالَةٍ خَـدَّالَـةٍ نَشَـبِ خَدَّقْتِ بِالْوَشْمِ جِلْدِي أَيَّ تَخْرَاقِ
تَقُولُ أَهْلَكْتَ مَالاً لَوْ ضَنِنْتَ بِهِ مِنْ ثَوْبِ عِزٍّ وَمِنْ بَزٍّ وَأَعْلاَقِ
سَـــدِّدْ خلاَلَكَ مِنْ مَـالٍ تَجْمَعُهُ حَتَّى تُلاَقِي مَا كُـلُّ أَرِيٍّ لاَقِ

ويذكر الشاعر أنَّه لقي الغول، فقتله، وجعل يصفه (ابن قتيبة، د.ت، صفحة 313):

تَـــقُولُ سُـــلَيْمَـــى لجَارَتِهَا أَرَى ثَـابِتًا يَـــفَناً حَـــوْقَلاَ
لهَـــا الوَيْلُ مـا وَجَـدَتْ ثابِتا أَلَـــفَّ اليَـدَيْـنِ ولا زُمَّـلاَ
ولا رَعِشَ الســاقِ عِنْـدَ الجِراءِ إذا بـادَرَ الحَمْـــلَـةُ الهَيْضَـلاَ
يَـــفُـوتُ الجِيَـادَ بتَقْـــرِيبِهِ ويَكْسُـو هـــوادِيَهَا القَسْطَلاَ
وأَدْهَـــمَ قد جُبْـتُ جِـلْبَابَهُ كما اجْتابَتِ الكاعِبُ الخَيْعَلا

فكما تمرَّد تأبَّط شرا على نظام القصيدة الجاهلية ، تمرَّد على أغراضها التقليدية الشائعة في الشعر العربي القديم.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

6. خاتمة :

نخلص في ختام هذا البحث إلى ما يلي:

مثّل شعر تأبط شرا علامة بارزة في موضوع التمرُّد في شعر الصَّعاليك، كما حافظ في الآن ذاته على التمرُّد كحقيقة موجودة في نسيج مجتمع في فترة ما وزمن معين، ملبسا بذلك التمرد الفردي صفة الجماعة في زمنه وفي زمن من تبعوه بعد ذلك، مكونا لنا ما يسمى بالقناعة الذاتية الهادفة لتأكيدها لا محوها.

وبذلك فإن التيمة الحاضرة في خطابه استحالت أن تكون مجرد مجاز وصيغ تركيبية إلى خطاب تم فيه العبور بنجاح إن صح القول من الهامش إلى المركز بالأداة ذاتها، التي جعلت الخطاب المقابل له في المركز منذ البداية. فحتى وإن كانت الموضوعات الشعرية في قصائده مستوحاة من حياة اتسمت بالغزو والإغارة والسلب والنهب، فإنها بالمقابل مثلت صرخة رافضة متمردة للروح في ثنايا الصحراء، ومخاوف الطريق وحكايا القفار ومن مروا بها غير ماكثين.

من الناحية الفنية يمكننا القول إن شعره مثل خروجا عن نمطية البنية التقليدية للقصيدة العربية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي، لكن بالمقابل حولها إلى مقطوعات عكس القصائد الطوال، ليحذف بذلك جزء تعوده العرب في الإلقاء، وليترك مساحة لتذوق نص جديد يبنى من المخاطب والمتلقي الرافض في الآن ذاته، إلى متلق آخر يبحث عن أخبار لم تمر على مسامعه من ذي قبل، فيصير الموحش مألوفا، والغريب مؤنسا، والقفار عامرة.

وبذلك فإن البحث في جذور اختيار المقطوعات والتصرف في الوصف، والتمرد مجازا وفنا وصياغة ليس إلا حلقة أخرى تضمر أكثر مما تفصح، وتحمل في طياتها تيمات أخرى يكون للتأويل فيها نصيب أكثر من ادعاء الحقيقة في إتيان صرحها.

وقد حاولت الدّراسة أن تقف عند تيمة، وموضوع التمرد في شعر تأبط شرا، فكما كان هناك بعد وانشقاق بين القبيلة وأبنائها المنتسبين إليها، كان هناك أيضًا بعد وقطيعة وفجوة بين شعر القبيلة وشعر تأبط شرا الذي تتأسس في الصحاري والمراقب.

فقد كان شعر تأبط شرا رسالة احتجاج وتمرد على حياة الظلم والبأس ضدّ القبيلة ومجتمعه، وهو تمرد فردي ذاتي نابع عن قناعة شخصية، فإحساسه بعدم الانتماء هو الذي قاده للخروج عن مراسيم القبيلة مفضلاً أُنس الصحراء والوحوش عن أهله وعشيرته وذويه، وللبيئة الجافة القاحلة المتقلبة المناخ من برد وحرارة، وتضاد جغرافي دور كبير في حياة الشاعر، وشخصيته، وسلوكه هذا الأمر جعله مبالغًا في حبه وكرهه، فشعر تأبط شرا شعرًا ممزوجًا بمشاعر التمرد والانتصار.

وثورة الشاعر كانت انطلاقًا من ذاته أولاً حين قرر الخروج عن قوانين القبيلة وسعى إلى الحرية، وأيضًا الخروج عن التقاليد الفنية المترسبة في أشعار هؤلاء الصّعاليك.

علينا أن نعيد النظر في التهم التي تلصق بالصعلكة، لأنها صادرة عن السلطة وليست صادرة عن النص الصعلوكي.

على الباحثين في شعر الصعلكة، أن يردوا له اعتباره، وأن لا ينظروا له خروج عن الطاعة، وتمرد على القبيلة فحسب، بل ان ننظر إليه من زاوية أخرى، وأن نقرأه كما هو.

7. قائمة المصادر والمراجع:

المؤلفات:

ابن قتيبة. (د.ت). *الشعر والشعراء ج1*. (أحمد محمد شاكر، المحرر) القاهرة، مصر: دار المعارف.

أبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسن. (1994). *الأغاني ج21* (ط 1). (دار احياء التراث العربي، المحرر) لبنان، بيروت: دار احياء التراث العربي.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أبي تمام حبيب بن أوس الطائي. (1998). *ديوان الحماسة* (ط 1). (أحمد حسن بسج، المحرر) لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية.

ألبير كامو .(1983) .*الإنسان المتمرد*.(ترجمة نهاد رضا)بيروت, لبنان: منشورات عويدات.

الزمخشري أبي القاسم جاب الله. (1998). *أساس البلاغة ج2* (ط 1). (محمد باسل عيون السود، المحرر) بيروت، لبنان: منشورات دار الكتب العلمية.

القرآن الكريم. (الآية 101). *برواية حفص عن عاصم*. القاهرة، مصر: شركة القدس للتصدير.

بدوي عبد الرحمان. (1980). *دراسات في الفلسفة الوجودية* (ط 1). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

تأبط شرا. (1984). *الديوان* (ط 1). (شاكر علي ذو الفقار، المحرر) بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.

حنا الفاخوري. (1986). *الجامع في تاريخ العربي القديم* (ط 1). بيروت، لبنان: دار الجيل بيروت, لبنان: دار الشروق.

شوقي ضيف. (1960). *تاريخ الأدب العربي ج1* (ط 11). القاهرة، مصر: دار المعارف.

عبد الحليم حنفي. (1987). *شعر الصعاليك منهجه وخصائصه*. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

محمد ابن منظور. (د.ت). *لسان العرب*. القاهرة، مصر: دار المعارف.

يوسف خليف. (د.ت). *الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي* (ط 3). القاهرة، مصر: دار المعارف.

يوسف وغليسي. (2007). *مناهج النقد الأدبي* (ط 1). الجزائر: جسور للنشر والتوزيع.

مواقع الأنترنيت:

حمداوي جميل. (28 04, 2011). *المقاربة الموضوعاتية في النقد الأدبي*. تاريخ الاسترداد 15 12, 2020، https://www.arabicnadwah.com/articles/muqaraba-hamadaoui.htm

عصام محمود. (02 08, 2020). *مامعنى التيمة؟* (2010) تاريخ الاسترداد 12, 12، من شبكة الفصيح لعلوم التربية. http://www.alfaseeh.com/vb/showthread.php?t=55533

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)